86 - 85 | العلم والتكنولوجيا 32 | الفكر الإستراتيجي العربي 44

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية

صيف - خريف 1996 العددان الخامس والثمانون والسادس والثمانون السنة السابعة عشرة (3 - 4)

مسائل في السياسة واللغة والعنف

- بنى السلطة والثقافة والأمة العربية
- ظواهر من أزمات اللغة
- بانوراما العنف في السياسة والأدب

د. زهير حطب
د. أبو بكر باقادر
د. صالح فيلالي
د. قيس النوري
د. محمد الأسعد
د. برهان زريق
د. هيثم فرحت
د. قاسم حبيب جابر
د. فاطمة سويدان
عصماء نعمة
د. عزالدين العامري
د. عبد المنعم الشنتوف
د. شفيق البقاعي
د. محمد خير البقاعي
د. مصطفى الجوزو
د. حسن بكر
د. قصي الحسين
ناجي سمعان

مجلة متخصصة محكّمة تعنى بشؤون الفكر

معهد الإنماء العربي

المحتويات

الافتتاحية: ظاهرة العنف وعنف الظاهرة ـــــــــ د. مصطفى عمر التير 3

ملف I: حول بنى السلطة والثقافة والأمة العربية

☐ صفحات من البحث الاجتماع
ـ سياسي الاستعماري ـــــــــ ترجمة: د. ابو بكر أحمد باقادر 5
☐ إيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية ـــــــــ د. صالح فيلالي 20
☐ آفاق الديموقراطية والتركيب الثقافي العربي ـــــــــ د. قيس النوري 38
☐ الاندماج الإقليمي ووحدة الأمة العربية ـــــــــ د. محمد الأسعد 50
☐ التطبيع يتماهى مع التطويع والتغريب والتفريق ـــــــــ د. برهان زريق 64
☐ العالم الحرّ ـــــــــ ترجمة: د. هيثم فرحت 74

ملف II: في مسائل الفلسفة وامور الحكم

☐ الفلسفة الإسلامية: تاريخ وأصالة ـــــــــ د. قاسم حبيب جابر 91
☐ قراءة في مفهوم السعادة الإنسانية عند ابن سينا ـــــــــ د. فاطمة سويدان 107
☐ نظرة المعتزلة إلى الحكم والحاكم ـــــــــ عصماء نعمة 121

ملف III: ظواهر من أزمات اللغة ونماذج عن معالجاتها

☐ تاريخ الأسلوبية ـــــــــ ترجمة: د. عزالدين العامري
د. عبدالمنعم الشنتوف 140
☐ مفهوم النص في اللسانيات الحديثة ـــــــــ د. شفيق البقاعي 151
☐ أزمة التعريب: مصطلحات «نظرية النص» نموذجاً ـــــــــ د. محمد خير البقاعي 170
☐ مشكلة النسبة البائية في المصطلحات النقدية والأدبية ـــــــــ د. مصطفى الجوزو 177

ملف IV: بانوراما العنف في السياسة والأدب

☐ العنف السياسي في مصر ـــــــــ د. حسن بكر 196
☐ في عنف المنهج عند العرب ـــــــــ د. قصي الحسين 231
☐ بانوراما العنف الإسرائيلي وعنف الغرب ـــــــــ ناجي سمعان 242

التطبيع يتماهى مع التطويع والتغريب والتفريق

برهان زريق (*)

لقد اتسع وطننا الكبير لمسرحٍ عبثي غير منطقي أو معقول أو مقبول.

كثيرةٌ هي الفصول التراجيدية والكوميدية التي مُثّلت على خشبة هذا المسرح العبثي، لكنّ التمثيلية الكبرى كانت اتفاقية كامب ديفيد التي أخرجت مصر من دائرة ثقلها وحضورها العربيين.

وهكذا ما فتئت هذه الأم الجديدة (كامب ديفيد) تلد:

قصف العاصمة الحضارية الكبرى بيروت، محاصرة شعبنا العربي في العراق ومحاولة طمسه وإقصائه عن محيطه العربي، محاصرة ليبيا، وأخيراً توقيع معاهدة السلام مع الأردن.

إنما في معالجة القضايا المصيرية لا تصحّ العواطف.

ولكن كيف لنا أن نتمالك ونتماسك أمام منظر الجندي العربي الأردني وهو يقف باحترام ليحيي العلم الإسرائيلي في حفل توقيع المعاهدة... والأدهى أن يُوظف الدين في الحفل المذكور الأمر الذي يُظهره ترتيل آي الذكر الحكيم من قبل أحد رجال الدين.

والسؤال: لماذا نعتمد هذا الدين العظيم في سقطاتنا وانكفاءاتنا ونجعله حمولة ومطية لنزواتنا وارتكاساتنا ومواقفنا المتردية؟

ولا ننسى موقف العرّاب الكبير كلنتون وهو يشير بيده إلى رمال الصحراء في الجانب الأردني مقابل الخضرة في جانب العدو، وليس عجباً أن يكون اختيار المكان مقصوداً لاكتمال الصورة العبثية.

وتتعدّد صور وأشكال الإهانة بالأمة، وحسبنا ما أكدته صحيفة «الإندبندنت» اللندنية غداة يوم التوقيع بأن هذا السلام سلام مستورد وأميركي[1].

لماذا هذا السلام سلام أميركي؟ وما هي تلك الإهانات؟

(*) ناقد وبحّاثة ومحام ـ اللاذقية ـ الجمهورية العربية السورية.

(1) محمد حسنين هيكل وقد تكلم عن قمة إسرائيلية مصرية، ولكنه تكلّم عن حقائق الجغرافيا والتاريخ التي سوف تعود لتؤكد نفسها، صحيفة العربي القاهرية، عدد 76، تاريخ 12/9/1994.

لا مجال هنا لحفر وتفكيك هذه المعاهدة وتحليل جوانبها، وحسبنا الإشارة إلى الجانب الشكلي المتعلق بانفراد الأسد بالحمل الأبيض تمهيداً لانقراده بالبقية.

أين هو القرار العربي الذي حدّد أشخاص التعاهد ومضمونه ونطاقه وأهدافه؟

أمّا لماذا هذا السلام أميركي؟ـ الجواب بسيط لأن أميركا وضعت دستوره وحددت ماهيته وطبيعته الذاتية وجعلته مفتوحاً وديناميّاً، أي نقلته من دائرة القانون إلى دائرة السياسة، وهذا ما يتّضح من تحديد كلنتون لآفاق العلاقة الإسرائيلية المقبلة بأنها التزام بعمل.

ولكن كيف نفسّر أن أميركا حددت موقعية هذه المعاهدة (طبولوجياً) وغمستها في حوض السياسة لا القانون؟ للإجابة على ذلك علينا أن نصيخ السمع إلى أحد الأصوات الأردنية الجريئة، وهو صوت المفكر العربي حمد الفرحان.

لقد حدّد هذا الصوت التنازلات الأردنية في هذه الاتفاقية وبخاصة ما كرسته المادة الرابعة من دمج الأردن في العدو في كيان مفتوح يشبه المجموعة الأردنية، إضافة إلى إلزام كل طرف باتخاذ الإجراءات الضرورية ضد العداء للطرف الآخر، وهو نص ـ والكلام للسيد فرحان ـ غير موجود في أية اتفاقية بين دولتين في العالم، يُعتبر اعتداءً صريحاً على حرية وحقوق المواطنين الأردنيين وعلى المنظمات الشعبية الأردنية؛ إذ بمقتضى ذلك يقع تحت طائلة العقاب كلّ من يعبّر عن رفضه للاتفاقية سواء بالمشاركة في ندوة أم بالكتابة أم بالصحف بل حتى بمجرد المشاركة الجماعية أو الثنائية.

وبمقتضى المادة الحادية عشرة تُقيّد حرية الرأي بشكل لا مثيل له في العالم ويحظر على صحف المعارضة الدعاية ضد العدو من قبل أي تنظيم أو فرد[2].

بقي علينا الإجابة عن السؤال:

لماذا هذه الاتفاقية لا تشبه أية اتفاقية في العالم، وما وجه الغرابة فيها ؟

سؤال آخر يتفرع عن هذا السؤال هو: ما هي آلية وطبيعة هذا الجهاز المفاهيمي: التطبيع؟ـ ما المقصود منه، ما طبيعته؟ـ ثم ما هي هذه الشحنة الضبابية الخانقة التي تلفها كلمة التطبيع في وجدان كل عربي ؟

من الثابت أن مصدر الأسى العميق لهذه الآلية، آليّة التطبيع، أنها قسرية وتطويعية ولا تقوم على الإرادة الحرة المستقلة التي تبحث عن مصلحتها وترعى غايتها.

ذلك أن القانون بفروعه ومجالاته كافة لا يعهد إلزام أشخاصه بالتعامل جبراً وقسراً، وكلّ ما يعرفه أنه يحظر ويتبنّ لغة الاعتداء، سواء أكان ذلك الاعتداء بالمدلول الموسّع lato-sensu أم المضيّق stricto-sensu؛ فالأصل في الأشياء الإباحة والترخيص، والقول بغير ذلك ـ على صعيد القانون الدولي ـ يعني إلزام كلّ دولة بأن تتعامل مع الدول كافة بطريقة محددة ومعيّنة، وهذا أمر يتأبّاه المنطق وطبائع الأشياء إلاّ في حال التعاهد دون قيد في لغة الانتصار المطلق؛ فنحن هنا حيال تشيُّؤ طرف، واستغراق الطرف الآخر له، وهنا هو عين (التطبيع) المشروع الصهيوني الاستعماري الجديد.

---

(2) صحيفة العربي القاهرية، العدد (؟)، ص 5.

والمتفق عليه فقهاً وقضاءً أن مهمة الدولة تتحدد في حماية النظام العام لا خلقه. والنظام العام فكرة دائبة التطور والنمو، وهي تتجاوز النصوص، وهذا النظام العام وليد ضمير الأمة ووجدانها العام، وهو ما استقر وثوى وترسب في إرادتها ووعيها من قيم ومثل وتطلعات وآمال ومواقف.

إذن، التطبيع **يحول** دون النمو والارتقاء الثقافيين للأمة، باعتباره يضع ما لا حصر له من القيود على مسارب السلوك والانطلاق الفطري.

والتطبيع فعل إرادي **يحول** دون قيام المجتمع المدني كمجتمع مفتوح وحركي ومحكوم بنواميس الحياة وسنن الله في الاجتماع والاقتصاد والأخلاق، وهو بهذه المثابة **يتعارض** مع فكرة المواطنة كوصف موضوعي عقلي عام ومجرّد.

وبيان ذلك أن الدولة لا يمكن أن تذيب الفرد، ولا يجوز أن تمتد بسلطانها إلى تلافيف الضمير وحركة العقل، وقديماً قيل: لقد أراد روسبيير أن يقيم الفضيلة فأقام الرعب[3].

فالدولة تعكس نشاط الأمة وروحها، وتعبّر عن تطلعاتها وآمالها وقيمها، وهذه هي الشرعية الحضارية التي تترسمها الشرعية القانونية، يقول ريمون بولان: الدولة حضارة بأسرها، وقد استجمعت قواها، وأفصحت عن نفسها في مؤسسات[4].

والحكومة ليست إلاّ جهازاً في خدمة فكرة من نتاج الأمة، والأمة لا الحكومة هي التي تملك الصفات الأساسية والحياة العميقة الجذور التي يمتاز بها الشعب، وكل ما تعمله الحكومة صيانة هذه الخصائص لا الادعاء بتملكها.

وتظل **ثقافة الشعب فوق الحكومة**، وإن كانت السلطة تحاول أن تكيّف هذه الثقافة على هواها فتشوهها، وتحرف معناها. ذلك أن ثقافة الشعب المعبّرة عن روح الجماعة تظل في انطلاقها وحريتها إلى أن يفسدها حكم المستبدين أو حكم المتزمتين وهذه الثقافة وليدة التجارب مع صور الحياة، ومع حس الأرض والسماء، ومع قيم الحب والرفعة ومع نداء الضمير، ومع المسرات والأفراح، ومع الشوق اللامتناهي لتحقيق الرغبات، ومع الصراع مع تلك التجربة التي تستعصي على الفهم، إنها تجربة الإيمان[5].

وقد تتعرض الجماعة لخطر شديد، ولكن الخطر الأشدّ **أن تغتصب السلطة ثقافة الأمة، وتسيطر على حياة الجماعة**، وتكتم أنفاس الناس، وتقيّد حريتهم في أن يختلفوا بمعتقداتهم وآرائهم وطرق تفكيرهم وأساليب حياتهم.

ذلك أن دار الإنسان هي دار معتقداته، والجماعة هي الميدان الذي يمارس فيه المواطن معتقداته، ويدافع عن أية قضية يؤمن بها أو رأي يذود عنه، حتى ولو خالف بها آراء ساكني الدار[6].

على ضوء هذا التحديد يميّز إيستون بين الشرعية الفردية حيث لا ينوب الفرد في الجماعة وإنما يذيبها وينقصها، يميز ذلك من شرعية الأصول، الشرعية العقلانية والتي تعني التحديد

---

(3) روبرت أم ـ ماكيفر: **تكوين الدولة**، ترجمة حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت.
(4) ريمون بولان: **الأخلاق والسياسة**، ترجمة عادل العوا، دار طلاس، دمشق، 1989، ص 300.
(5) ماكيفر: **تكوين الدولة**، ص 324.
(6) المصدر نفسه، ص 520.

الواضح والدقيق والمفصل للحقوق والواجبات[7].

والسؤال: هل أن التطبيع يراعي هذه الأصول، أم أنه سيلوي حركة المجتمع ويتطاول إلى التحديد المسبق لمساراته؟

نجد الجواب عن ذلك في المعاهدة الأردنية الإسرائيلية التي لم تكتفِ بتقنين منع الاعتداء على إسرائيل بل تجاوزت إطار القانون إلى إطار السياسة لتتغلغل إلى تلافيف الوجدان وتتدخل في مسائل من متعلقات الرأي والفكر والثقافة، مع التنويه بأن الاعتداء عليه بهذا القانون، أما الاعتداء المعنوي والثقافي ـ وهو مظهر يتأبّى على التحديد والضبط ـ فهو موضع خلاف بين فقهاء القانون الدولي، ولما يكن موضوعاً للتقنين الوضعي[8].

ونسأل: هل نحن أمام نكبة عسكرية جديدة كهزيمة حزيران 1967، لا تني إسرائيل تقطف ثمار نصرها الجديد؟

أين نتائج هذه الثورة الشعبية الكبرى، ثورة الحجارة التي انحنى لها العالم؟

وحقيقة الأمر أنه بالرجوع إلى حرب حزيران 1967، نرى أن هذه الحرب اقترنت بصدور قرار مجلس الأمن بتاريخ 1967/11/22 الذي تضمن في ما تضمنه: إنهاء حالة الحرب، وأن تحترم وتقرّ كل الدول الاستقلال والسيادة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة، وحقها في أن تعيش في سلام في نطاق حدود مأمونة ومعترف بها متحررة من أعمال القوة أو التهديد بها.

وهكذا يتضح أنه ـ وبالرغم من انتصار إسرائيل العسكري ـ هذا القرار لم يتطرق إلى موضوع إلزام كل طرف بالتعامل مع الآخر، وكل ما تضمنه منع الاعتداء وإنهاء حالة الحرب.

واستطراداً فإنهاء الحرب لا يعني الاعتراف الذي هو عملية إرادية تعبّر عن رغبة الدولة المعترِفة في الدخول في علاقات مع الدولة المتعرف بها، وبالتالي فلا يتصوّر بتاتاً في المجتمع الدولي وجود اعتراف ضمني من دولة بدولة أخرى في الوقت الذي ترفض فيه الدولة الأولى صراحة الاعتراف بالدولة الثانية؛ هذا، والعرف والعمل الدولي لا يرتب على تحديد الحدود أي التزام بالاعتراف، ومثال ذلك اتفاقيات جنيف لعام 1954 التي حددت خط 38 كفاصل بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية وخط عرض 17 كفاصل بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية، ولقد اعترفت فرنسا في الاتفاقية التي عقدتها مع هوشي منه في 1946/3/6 بالحكم الذاتي لفيتنام (قبل تقسيمها)، ولكنها لم تعترف بها كدولة مستقلة[9].

وفضلاً عن ذلك، فإسرائيل نفسها لم تطمع في هذه الآونة بأكثر من حالة السلم وعدم الاعتداء بالمعنى الموسع دون أن يعني ذلك حالة من التطبيع التي هي حالة متقدّمة على عدم الاعتداء، وتقوم على أساس دينامي، وهذا ما يؤكده خطاب آبا إيبان الموجّه إلى جورنار يارنج بتاريخ 1968/10/15! فكلّ ما تكلم عنه هذا الخطاب هو السلام العادل والدائم، وضرورة وضع خريطة للحدود الإقليمية، وأن يعلن إنهاء النزاع وحالة الحرب بصفة نهائية، وأن تستبدل

---

(7) غسان سلامة: **نحو عقد اجتماعي عربي جديد**، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص 25.

(8) عائشة راتب: **بعض الجوانب القانونية للنزاع العربي الإسرائيلي**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص 57 وما بعدها.

(9) المرجع نفسه، ص 56.

خطوط وقف إطلاق النار بحدود دائمة وآمنة، وعندئذٍ يجري تنظيم وضع القوات بما يتفق تماماً مع الحدود التي يتفق عليها في ظل السلام النهائي مع اتخاذ تدابير دائمة وفعالة من أجل حرية الملاحة الإسرائيلية[10].

وهكذا يتضح أن المفهوم الإسرائيلي لإنهاء حالة الحرب لا يتعدى حالة موسعة للسلم وعدم الاعتداء، ولكن الخطاب المذكور لم يتطرق قط إلى قوى الدمج والتطبيع على صعيد النظام الاجتماعي والثقافي.

وحقيقة الأمر أن مجلس الأمن كان منسجماً في هذا القرار مع نفسه واختصاصه القانوني الذي لا يتعدى منع الاعتداء وحفظ السلم الدولي، أما التطبيع، فهو مفهوم اجتماعي وثقافي واقتصادي وسياسي يتجاوز أفق القانون.

ولا شك أن هنالك ستاراً حاجزاً بين القانون والسياسة، أو بمعنى أوضح فإن القانون يتميّز وإن لم ينفصل عن السياسة إذ السياسة حالة متحركة ترنو إلى السكون، وعندما تحقق ذلك تغدو قانوناً، ونحن في التطبيع أمام حركة وآلية انصهار مستمرة لا تتقيّد بضوابط القانون الثابتة والمحددة، وبالتالي ولأنها حركة غير مقيّدة في نطاق أو مضمون، فهي سياسة والسياسة كما معلوم تقتصر على إلزام الحكام، ولا يمكن أن يتعدى نطاقها دائرة الإباحة أو الترخيص وتلافيف الدماغ وحركة النفس والرأي. وفي نهاية الأمر فلا أحد يستطيع أن يلزمني بشراء هذه السلعة أو تلك أو السماع إلى أغنية معيّنة أو تذوق قيم جمالية أو ثقافية محددة إذ الأمر رهين بي، وهنالك منطقة محرمة لا تخضع لأحد ألا وهي الإرادة التي لا تخضع إلاّ إلى وخزات الضمير، وبالتالي فأنا وأنت نستطيع أن نتخذ موقف الرافض حتى لو كنا في حالة الجلد، وعلى هذا فالحب المفروض نفاق، والزواج القسري زنا، والتجارة الملزمة استغلال، فكيف إذن يتهافت حكامنا من أقصى الوطن العربي للدخول مع إسرائيل في فعاليات الدمج، وهل يعني ذلك أننا في حال هزيمة عسكرية تفوق هزيمة حزيران؟

وحقيقة الأمر أن قصتنا مع الغرب وإسرائيل أنهم عاملونا بأننا الرجل المريض واعتبروا أرضنا بلا شعب، فاقتلعونا منها ونهبوا ثرواتنا.

هكذا ببساطة تنشأ الكيانات السياسية للابتزاز والسرقة ونهب دماء شعوبنا، وبجسارة يفرضون علينا أن نعيش مع أبناء جلدتنا بالحياة الطبيعية وبالأخلاق الطبيعية وبالاقتصاد الطبيعي، ليفرضوا علينا نظام الشرق الأوسط القائم على الاختلاط والهجنة من هذه الدولة أو تلك مع بعض المزق والأشلاء من جسد العروبة، كل ذلك بإسمنت إسرائيل وبنسيج مكوك إسرائيل.

وإذا كان الامتلاك العسكري أو الاستعمار التقليدي يقوم على الاحتلال أي على القوة، فهذا الدمج المزيف الجديد يحتاج من حيث النتيجة إلى الثقافة. وهكذا فمشكلتنا الأساسية مع التطبيع المزعوم هو المشروع الثقافي التطبيعي الخطير الذي سيضخه المشروع الإمبريالي الاستعماري الصهيوني لمحاصرة أمتنا وإقصائها وتهميشها وطمس ثقافتها وهويتها، وهزيمتها نفسياً وروحياً، لأن المستعمر بهذه الهزيمة يدك آخر معقل من معاقل وجودنا.

وبمعنى أوضح فالفاعل الاقتصادي والسياسي سيؤدي دوره في هذا التأسيس الجديد، ولكن

---

(10) عائشة راتب: المرجع نفسه، ص 13.

الحمولة الثقافية ستنال القدح المعلى والخطوة الكبرى، لأن هذا التعايش الظاهري المزيف يقوم على مدافع الألفاظ ودبابات الأفكار.

وتجدر الملاحظة أن هذه الحرب الثقافية ليست من ابتداع الأدب السياسي العربي وإنما هي حقيقة كبرى تلقي بظلها بقوة على العقل الأطلنطي، حقيقة ردّدت بوقاحة في كتابات المفكرين الاستراتيجيين الأميركيين الذين لم يتورعوا عن استخدامها على أساس كونها مفهوماً يقتضي التركيز عليه طالما أنه لا مجال للدفاع بعمق عن الحضارة الغربية المأزومة إلاّ بشنّ حروب ثقافية[11].

ولقد عبّر عن هذا الاتجاه و. س ليند الكاتب الاستراتيجي الأميركي في مقالته المنشورة عام 1991 في مجلة **السياسة الخارجية الأميركية** تحت عنوان «الدفاع عن الحضارة الغربية» (عدد 84)، إذ تنبأ هنا الكاتب بأن حرب الخليج ستكون هي الحلقة الأولى في سلسلة الحروب الثقافية المقبلة والتي ستتوجه بعد انهيار الشيوعية إلى الصراع مع الحضارة الإسلامية[12].

وإذا كانت هذه المقالة تلفت الانتباه، فهناك مقالة عالم السياسة الأميركي المشهور صامويل هنتنجتون «الصدام بين الحضارات» التي نشرت في مجلة **فورين أفير** إذ لاقت تجاوباً ملحوظاً بسبب أهمية وسعة انتشارها وبسبب الردود الكثيرة التي تلقتها هذه المجلة والتي تؤيد رأي هنتنجتون.

ولم تتوانَ الفلسفة أن تدلي بدولها في هذا الموضوع، وهذا ما يتضح من كتاب **نهاية التاريخ** للمفكر الأميركي الياباني الأصل فوكوياما.

وخلاصة هذا الكتاب أن التاريخ وليد الصراع، ومن ثم، فهذا التاريخ يعتبر منتهياً بالانتصار على الشيوعية حيث لم يبق إلا النموذج الحضاري الأميركي الذي سيعمم على العالم.

ولم ينسَ فوكوياما أن يتعرض للمسلمين ونواتهم العرب، فوصفهم بالعطالة الفكرية والحضارية، الأمر الذي يحول دون تكوينهم كتلة تاريخية فاعلة تستطيع الوقوف في وجه النموذج الرأسمالي المنتصر.

ولم تقف القضية عند الفكر الغربي الذي أخذ يُعبِّىء لغزو أمتنا ثقافياً، بل إن طلائع هذه الأمة تنبهت لهذا الخطر:

- تكلم عزيز الحاج عن حرب ثقافية ضد أمتنا تتكون آلياتها من الفنون والإعلام وأنماط التفكير وأساليب التصرف إضافة إلى القيم والمثل والتعليم وكل ما يكوّن التراث والتكوين الفكري والروحي للشعب وسلوكه وتقاليده وطراز حياته، أي ما يسمى بالشخصية الثقافية الوطنية والقومية أو الهوية الذاتية الثقافية[13]. كل ذلك في **محاولة لسلخ العرب من عروبتهم وطمس قوميتهم** وفرض الغربة والشعور واقتلاع الأصول والجذور.

ولقد حدد هذا المفكر بعض الحقول التي يعتمد مخططو الغزو الثقافي التركيز عليها وهي: انتحال الفولكلور، وتشجيع العامية على حساب الفصحى، وتشجيع اللغات الأجنبية والمساعدة

---

(11) مقال السيد ياسين، رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، منشور في جريدة **الاتحاد** الصادرة في 1994/3/21.

(12) المصدر نفسه.

(13) عزيز الحاج: **الغزو الثقافي ومقاومته**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984، ص 12.

على هجرة الأدمغة العربية، والأخذ بأنماط السلوك والاستهلاك الغربي، ونسيان الممتلكات الثقافية المتهوية، وتغليب المصالح القطرية على المصالح القومية، وتشجيع الأمية والتسامح في التعريب.

- بدوره، ألقى عبد العزيز شرف الضوء على دور الضخ الإعلامي المتعدد القنوات في تحقيق أغراض الغزو الثقافي[14].

- من جهته، ركّز عبد العزيز محمد على خطورة استقبال الشباب العربي للغريب المستورد، وذلك من خلال رسم جوانب قاتمة لحياة شباب الغرب الذي يدفع ثمن التفكيك الأسري والحرية غير المنضبطة بالقيم الأخلاقية والروحية والاجتماعية[15].

- ولقد بلور أحمد صادق سعد أبعاد الغزو الثقافي من خلال التمادي بالانفتاح غير المتناهي[16].

- وركّز نواف عدوان على إمكانات تطوير الضخ الإعلامي العربي لتقوية الاعتزاز بهويتنا الثقافية والتصدي للتشويه المتعمد لتراثنا[17].

- وتكلم محمد جلوب فرحان عن آلية الاحتكاك مع الغرب في صيغة كونه المتكلم، ونحن المستمعون، أي في صيغة حوار سلبي ومن طرف واحد.

ويشير هذا الكاتب إلى وجود مخططات غزو ثقافي يهدف إلى إلغاء وجود الأمة العربية مبتدئاً أولاً بقيادة مشروع تخريب في ثقافتها، ثم دفع ثقافات عربية مغتربة تتحرك باتجاه إلغاء كل ما هو عربي وإظهار الثقافة الغربية[18].

- وينعي فكتور سحاب على هؤلاء العرب المنبهرين بالثقافة الغربية بزعم مواكبة العصر، وكأن العصر قابع في منطقة جغرافية واحدة اسمها الغرب، ولقد حثّ الكاتب على ضرورة الاهتداء إلى صيغة عربية معاصرة لطبيعة بلادنا وقيمها الاجتماعية ومشكلاتها الاقتصادية وحاجتها التربوية. وبالمقابل فقد ندد سحاب بدعاوى مواكبة العصر عن طريق نقل أفخم ناطحات السحاب وأظهر بأن ذلك إقرار بالانتماء إلى عصور متخلفة، وتعبير عن مشاعر انبهار وعقدة نقص حيال مظاهر ليس لها علاقة عضوية بأرضنا وتراثنا[19]؛ ويورد نموذجاً لهذه الهشاشة يتمثّل بما حدث في تركيا بتخليها عن التراث والاندفاع نحو التغريب ومحاكاة كل ما هو أوروبي باعتباره الطريق الأوحد للتقدم، ويرسم لنا صورة سوداوية لما يمكن أن يحدث عندما نتخلى عن التراث ونستكين ونستسلم للغرب[20].

- ولقد أظهر الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بللا خطورة الاستيراد الاستهلاكي موضحاً أن معركة التكنولوجيا تعني أن نمتلك الآلة التي تصنع السيارة، تلك أن الإنتاج الاقتصادي هو

---

(14) مجلة **شؤون عربية**، ع 37، آذار 1984، ص 179.
(15) المرجع نفسه، ص 210.
(16) «التنمية والهوية الثقافية والوطنية»، **مجلة دراسات عربية**، ع 37، آذار 1984، ص 211.
(17) «الإعلام العربي ودوره في التصدي للمخططات المعادية للقضايانا العربية»، **مجلة شؤون عربية**، ع 39، 1984، ص 121.
(18) «الثقافة المضادة ودور المثقف العربي في الدفاع الوطني»، **مجلة الدفاع الوطني**، ع 2، 1984، ص 192.
(19) «التراث وأزمة القيادة العربية»، **مجلة قضايا عربية**، ع 2، 1983، ص 221.
(20) **مجلة شؤون عربية**، ع 60، ص 74.

بالضرورة إنتاج ثقافي وبالتالي فما من عمل يمكن أن يُعزل عن محيطه وثقافته وفلسفته وظروفه، وحين نختار نموذج تنمية قائماً على معادلات غربية، نكون قد اخترنا بالضرورة نموذجها الثقافي لأن التكنولوجيا تنقل معاييرها الثقافية الأصلية[21].

- ويؤكد عبد الله العروي أن التفوق التكنولوجي جعل الغرب يتفوق علينا ليس بالثقافة والاسلحة بل جعله يفرض علينا آلهته[22].

- ولفت محمد الدغمي الاهتمام إلى نقطة حساسة وهي أن من أهم المسائل التي شغلت اهتمام بناة الأمبراطوريات الغربية محاولات نسف الإسلام، ليس باعتباره يمتلك مقاومة الغريب والطارىء، بل لأن هذا الدين الحنيف هو عمود الثقافة العربية منذ أقدم العصور، وهو بذلك ضمان بقاء ثقافة اللغة العربية[23].

وحقيقة الأمر أن مشكلة أي شعب، إنما هي أولاً وأخيراً **مشكلة حضارية**، ولا يمكن له أن يحل إشكالاته إلاّ بأن تكون له قاعدة حضارية رصينة كنطقة انطلاق وإطار ينسق أفعاله ويدفعها نحو غاية مرجوّة. ويعرّف نديم البيطار الهُويّة بأنها بنية فكرية نفسية أخلاقية محددة تنظم الطاقات وتضمن الاتساق والانسجام وترسخ التكامل والنمو والاتزان[24].

وفي نظرنا أن هذا الآتي (التيار الخارق) ليس بإعصار، لكون أمتنا العربية تقبع على تراث ثقافي عميق وغاية في القدم، مما جعلها أمة غير سهلة الانصياع أو الانقياد للبدائل الثقافية الدخيلة. وبتعبيرٍ اكثر دقة، إنها أمة ترتكن إلى تراث ثقافي غير هش بل قادر على النهوض بتأملاتها الحاضرة وآفاقها المستقبلية، ولهذا فإن ثقافتها المتراكمة تنطوي على عناصر مقاومة وضوابط حواسية تتحسس الطارىء بالرغم من بهرجته وجاذبيته[25].

ولهذا فقد وُصفت امتنا بانها أمة مواجهة، إذ ابتليت باقسى محن التاريخ، وهبّت عليها أعتى العواصف وتعرضت لسلسلة من محاولات الطمس والمحو كالزحف التتاري والصليبي والاستعمار الغربي المعاصر، ومع ذلك فقد زادتها هذه المحن قوة شكيمة وصلابة إرادة.

ولكون أمتنا هي أمة الكرامة والاعتزاز بالشرف فهي لا تقبل الذل إذ تذود عن الأرض بالدم، وعلى هذا فلا مستقبل لمن يريد أن يأكلنا بالمفرق، متناسياً أن العرب بدو ذوو معدة تسحق الصخر وهم من آكلة التاريخ، ومن سكان الصحارى وعشاق الحياة بالموت[26].

إن التغريب أقوى قوة وأصلب مكسراً من التغريب، ولا يمكن للعربي أن يخرج من جسده وروحه ومنطقه إلى اللاهوية؛ ويبقى وجدان الأمة ووعيها الحقيقي هو أهم مقياس لكل سياسة، والصادُ الحصين للتطبيع الذي يشترطه الغرب مفتاحاً لسلام بين أمة لا تتاجر بأرضها وكرامتها، وبين تاجر البندقية شيلوت الصهيوني الذي يظن أن العداء يمحى بالدولارات في حين أن العربي مسكون بالتراث والتراث الشعبي مسكون بالإسلام وبالسلام والحرب[27].

---

(21) «مذكرات أحمد بن بللا»، جريدة **السفير**، 1982/3/8، ص 11.
(22) مجلة **شؤون عربية**، عدد 8، كانون الأول 1994، ص 177.
(23) المرجع نفسه، ص 176.
(24) نديم البيطار: **المثقفون والثورة**، المجلس القومي للثقافة العربية، بيروت، 1987، ص 325.
(25) مؤيد سعيد: «التواصل والاستقبال الحضاري في التاريخ»، مجلة **قضايا عربية**، ع 2، شباط 1981، ص 34.
(26) خليل أحمد خليل: «حول أدوار الشمولات من الثقافة العربية»، مجلة **الفكر العربي**، ع 78، 1994، ص 5.
(27) المرجع نفسه.

ومع ذلك، فإن لنا على المشروع الثقافي العربي الملاحظة الآتية:

يرى مؤرخو الحضارات المعاصرة، ومنهم رولان برتون في كتابه **جغرافيا الحضارات** أن في عالمنا المعاصر سبعة مدارات حضارية كبرى تتوسطها الحضارة العربية الإسلامية الممتدة من نهر الغانج إلى المحيط الاطلسي- ولقد ملأت هذه الحضارة سمع الدنيا عدلاً وتقدماً، وملكت ناصية التاريخ، وكانت يدها اليد الطولى الأولى والأخيرة، وهذا هو معنى قول الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان: نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع.

وعلى هذا فليس من السهل أن تبيع هذه الأمة روحها أو تطأطىء رأسها للغرب بل ستعود إلى ذاتها وثقافتها ـ الحافزة لا العبء ـ تنطلق منها لتتبارى مع الآخرين في معركة تفتُّح الزهور.

كما أن لنا بالطبع بعض الملاحظات على هذا المشروع الثقافي النهضوي النقيض لمشروع التطبيع:

1 ـ هذه الثقافة كأية ثقافة إنسانية فيها الغث والثمين، فيها الطاقات الخلاقة الحافزة إلى جانب الطاقات العبء على حد تعبير المفكر العربي قسطنطين زريق.

2 ـ يجب أن لا تنسينا الثقافة العالمة savante التركيز على الثقافة العربية الإسلامية الشعبية populaire، لأن هذه الثقافة الأخيرة تمثل عمقاً بعيد الاغوار راسخ الجذور، ولأن المواطن العربي الإسلامي العادي هو مادة العروبة والإسلام، والعجلة والفلك الذي تدور عليه أمتنا نهوضاً وانكفاء.

يقول أحد المفكرين الإيطاليين: دعني أدون عادات الأمة العربية وتقاليدها، ولا يهمني بعدئذٍ ما تفعله السياسة.

حقيقة الأمر أن سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد على حد تعبير بوتول.

وعلى هذا فالتحصين السوسيولوجي الثقافي لأمتنا يتم من خلال العض بالنواجذ على منطقنا الشعبي وموضع حماسنا واعتزازنا، بأدبنا وفولكلورنا، بموقعنا في الحياة، بموسوعتنا الثقافية بجمالياتنا وأخلاقياتنا، بحبنا الرفيع للحياة، بأهازيجنا وأفراحنا، فهذه الديناميات هي القلاع الحصينة والروافع الناهضة.

وحقيقة الأمر، أننا إذا تمسكنا بهذا المنهج استطعنا القول مع خليل أحمد خليل بأن التطبيع مجرد أسطورة ذلك أن العامة يملكون سلاحين، سلاح الإيمان الإسلامي وسلاح اللسان العربي. وبهذين السلاحين أخفق التطبيع الصليبي، واندحر عندما استل السيف العربي من غمده الإسلامي، وبهذين السلاحين خرج العثمانيون من الأقطار العربية ويعرفون من العربية وآدابها وفلسفتها وعلومها أكثر بكثير مما تركوا من كلام تركي في اللهجات العربية.

ونمضي أبعد ألم يأتِ الغرب بقضّه وقضيضه متقاسماً كل أسلاب الرجل التركي المريض متوهماً أن الإنسان العربي مريض أيضاً، ويؤكل بسهولة، فإذا به يخرج على مراحل وبأثمان باهظة دفعها عرب المغرب والمشرق بلا حساب[28].

---

(28) خليل احمد خليل: المرجع نفسه، ص 4.

3 ـ يجب أن لا يدفعنا الاعتزاز القومي إلى التواكل والاستخذاء، بل يجب أن يزيدنا اندفاعاً وبذلاً للجهد، وتفعيلاً للحياة، لأن أمامنا ـ كما قال الرسول محمد(ص) ـ عقبة كؤوداً لا يقطعها إلا المخفون وزماناً صعباً تملك به الظَلَمة واستبدّ به الفسقة.

هذا التطبيع سيجعل العدو الصهيوني بين ظهرانينا، أي يجعل المرض خفياً كدبيب النمل، ماكراً مخاتلاً كالثعلب...

4 ـ إذا كان هنالك دوائر عنصرية اصولية في الغرب، فهذا الأمر لا يحول دون تعاوننا وتفتحنا على الدوائر الإنسانية التي تشاركنا الحوار الحضاري امتثالاً لقاعدة دع الزهور تتفتح ولتتبار.

فاصولية الغرب وعنصريته ومركزيته ـ ومع الحفاظ على الذات ـ يجب الا تزيدنا إلا تفتحاً والتفاحاً وإنسانية مميزين في ذلك بين القمح والزؤان وسبيلنا مركب حضاري نواته الثقافة العربية الإسلامية المتفتحة تضاف إليها وترفدها منجزات العلم والحضارة الإنسانية الغربية.

5 ـ نحن مع نديم البيطار في فهمه السوسيولوجي التاريخي لا الميتافيزيقي للأمة.

وبيان ذلك أن الامة (أية امة) ليست جوهراً ثابتاً فوق التاريخ، والزمان له جواب واحد ومحدد على الاشياء قار ومستقر وثاو في أعماق الماضي.

الامة مجموعة استجابات reponses واعية لا ردود فعل غريزية على التحديات.

بهذا المعنى نفهم كيف أن اليونانيين تخلوا عن التاريخ فتخلى عنهم، والأمر النقيض حصل لسكان السويد والنروج الذين اقبلوا على الحياة فاقبلت عليهم.

إن الارتقاء الروحي هو اساس تقدم كل امة، قاصدين بهذا الارتقاء القوى الدافعة والتضحيات والعطاءات في سبيل الامة والحياة. هذا، **وإذا ما تغيرت إرادة الحياة في نفوسنا**، فسنقرع حتماً أبواب التاريخ وسنعيد حقنا المغتصب.

إن المواطنة الحرة ـ بالمفهوم الموسع الذي يشمل كل عربي ـ هي اساس بناء المجتمع المدني الأهلي المتفاعل الحي المفتوح الذي بدوره هو القلعة الحصينة، وهو مشتل العروبة والإسلام وحضانتهما، وحصنهما الحصين، **وعلى هذا المجتمع المدني ستقام المقاطعة الصلبة الرصينة للمشروع الثقافي المقارع النقيض**، وسبيلنا زحف ثقافي عربي يقوم على مشروع نهضوي أساسه الديمقراطية وحقوق الإنسان، ومبناه الخيار الحضاري ومؤسسه الدولة، ومناط أمره القيم الروحية النابعة من الأديان بحسب تعبير **ميثاق العمل الوطني** الناصري. وسيكون للمرأة الدور الكبير في هذه المعركة باعتبارها واعية الحياة للطفل وملقّنته قيم الامة وآداب العروبة وأخلاقها وإنسانيتها وقيم الدين الحنيف. وما إغراق المرأة العربية بمظاهر الحياة الغربية سوى **هدف اساس** في مشروع التطبيع والتطويع، غير أن ردنا صرخة مدوية، ردّدها أب العروبة المعاصرة جمال عبد الناصر: **إرفع رأسك يا أخي**.

ونحن مع هذا الأب نقول: يا أحرار العرب، ويا أحرار المسلمين اتحدوا ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون.